

قراءة في كتاب



الشيخ محمد الغزالي

الموقع الفكري.. والمعارك الفكرية

قراءة: أ. إبراهيم نوري
جامعة الشيخ العربي التبسي - تبسة -

قليل بأن للعلم رحما تجمع المنتسبين له، الذائدين عن قدسيته ورسالته، وهذه الرحم تتجلى بعض جوانبها في كتابات أهل العلم والدعوة والبلاغ عن أشقاء الروح والرسالة في هذه الرحم. أما بالنسبة لنا نحن فعندما يكتب الكبار، أو العظماء عن بعضهم، فإنه يبقى لنا مجال أو حيز للإعجاب والاقتداء بهذا المسلك، أو قل بهذا السلوك الحضاري المتقدم النبيل الرائع، كما أن هذا المسلك يعتبر خطوة إضافية جاذبة للقارئ والمهتم بتراجم وسير عظماء الرجال، ذلك أن قوة الإشعاع الجاذب - حينئذ - تكون مضاعفة.. فهي إشعاعان.. إشعاع المكتوب عنه وإشعاع الكاتب على السواء!

غمرني هذا الشعور المرهف حين أتممت بتأثر بالغ قراءة فصول هذا الكتاب، الذي ألفه المفكر الإسلامي الكبير الدكتور "محمد عمارة"، عن شقيق روحه في رحم العلم والدعوة والجهاد الفكري: الشيخ محمد الغزالي - أفسح الله له في جنته - وقد جعل عنوانه: (الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري.. والمعارك الفكرية).. ولقد دفعني هذا التأثر إلى أن أشرك القارئ الكريم هذه المشاعر الفياضة، وأن يتحسس معنا ويتذوق معاني الصدق والوفاء والمودة البصيرة، بين علمين من أبرز أعلام نهضتنا الفكرية والثقافية المعاصرة، كما أنني قصدت تقديم أنموذج من نماذج ورؤى التجديد والتطوير المطروحة في ساحاتنا الثقافية والفكرية من خلال بعض المسائل العلمية والثقافية التي تطرقت لها فصول هذا الكتاب.

ومن جهة أخرى فإن الاحتفاء بالرواد من قادة الفكر والدعوة، إنما هو واجب على مثقفي أمتنا الأصلاء، خاصة أن هناك جهوداً مأجورة غربية عن ثقافتنا، تستبيح أعلام هذه الأمة في العلم والأدب والسياسة والفكر والدعوة، وقد ثبت أن لها غايات يجب فضحها والتحذير من مغبتها، ذلك أنها تهدف إلى تزوير تاريخ أمتنا والقضاء عليه، وعندما تكون أمة بلا تاريخ وبلا أمجاد مشرقة، فلن تكون أمة.. فما قيمة أمة ليس لها رجال؟ وما قيمة دين لم يصنع رجالاً على تراخي الزمن وتعاقب العصور؟

إن هذا الشعور من جملة الدوافع التي ساقطنا إلى تقديم هذه القراءة، في هذا الكتاب الذي تمنينا أن لو اتسعت صفحاته، لتغطي كل معارك الشيخ الغزالي الفكرية، تلك التي خاضها منذ حمل القلم إلى أن واره الثرى، في الدفاع عن هذه الأمة ودينها وقيمها ورسالتها في هذا الوجود.

صدر هذا الكتاب عن الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة، وتتوزع أفكاره على مدى (120 صفحة) وذلك قبل وفاة الشيخ الغزالي بسنتين، وقد أهدى المؤلف كتابه - على غير العادة - للشخصية موضع الدراسة قائلاً: "يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه الطبراني: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)... وهذه الصفحات، التي يحملها هذا الكتاب، هي شهادة أقدم بها إلى إمام من أئمة العلم الإسلامي، وعدل من عدوله، في هذا العصر الذي نعيش فيه.

فيإلى عالمنا الفاضل، الشيخ محمد الغزالي.. شيخنا الجليل أهدي هذه الصفحات راجياً المولى سبحانه وتعالى أن يبارك لنا في صحته وعمره وعطاءه، وأن ينفع به أمة الإسلام والإنسانية جمعاء".

ولعل الأمر الذي يشد الانتباه بقوة، أن المفكر الكبير الدكتور محمد عمارة وهو الكاتب المكثّر، والمؤلف الفذ، الذي كتب عن أعلام بارزين كالشيخ محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وعلي المبارك، وعبد الرحمن الكواكبي، وقاسم أمين، ورفاعة الطهطاوي، وعبدالله النديم.. إلخ.. ومؤلفاته

الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري.. والمعارك الفكرية

هي ضعف مؤلفات الشيخ الغزالي، ومع ذلك فإنه - كما يشير - يتهيب من الكتابة عن علم كالشيخ الغزالي، يقول: "تهيب - وأنا الذي كتبتُ العديد من الكتب والدراسات عن العديد من أعلام الإسلام - أن أكتب هذه الدراسات الموجزة عن داعية الإسلام وخادمه الشيخ محمد الغزالي؟..

وسر هذا التهيب، هو نفوري من الكتابة عن الأحياء في زمن عزّت فيه الموضوعية في الكتابة عن الأحياء؟؟

وأيضاً فإن محبتي للرجل، ومن ثمّ خشيتي أن أكتب من موقع "المحب" فأنظر بعين الرضا إلى القضايا التي أقدمها إلى القراء؟.. لكنني غالبتُ هذا التهيب بعد أن اطمأنت نفسي إلى انتفاء المحذورات التي خشيتها وأخشاها على "الموضوعية" فيما أنا بسبيلي إليه ... ثم ما الذي يمنع أن أكتب عن الرجل من موقع: "المودة - الصادقة" ..

و"المحبة - البصيرة" .. الموقع الوحيد الطبيعي واللائق بعلاقة مثلي بمثله؟؟

وأخيراً.. فلو تحرّجت وتحرّج أمثالي من الكتابة عن مثل الشيخ الغزالي، لانفرد بهذه الساحة منافقون كثيرون يسودّون الصفحات الكثيرة التي تشدّ العقل إلى القاع بما تزيّفه عن أعلامنا الأحياء؟.. أو أهل العي والسطحية، الذين لا يعرفون مغزى حياة الأعلام؟..

ويتضح من هذه الكلمات أن المؤلف يستبطن الخشية من أن يتصدى للكتابة عن أعلام النهضة الإسلامية المعاصرة نوعان من الكتاب: الفريق الأول: بعض الكتاب المدسوسين على الأمة، ممن يكتبون بلغة الضاد، غير أن أفكارهم مسمومة، وولاءهم بمنأى عن مرجعية الأمة في الثقافة والحضارة. وهو على صواب في شعوره هذا، فقد قرأنا لكتاب لم يتورعوا عن تصنيف صحابة رسول الله ﷺ، إلى أهل يمين وأهل يسار، وأن أبا ذر الغفاري من رموز التوجه الاشتراكي، وأن الإمام علي بن أبي طالب من رموز اليسار الذي سبق غيره من أهل هذا التوجه في عصرنا هذا!! وأن ابن خلدون من منظري اليسار في التاريخ الإسلامي!! وقد ردّ عليهم بمنهجية علمية محكمة الدكتور عماد الدين خليل

في كتابه الشهير (ابن خلدون إسلاميا) وأخرصَ مزاعمهم ومفترياتهم.. والفريق الثاني: بعض الكتاب الذين قد يُسيئون لأعلام الأمة، من حيث يريدون خدمتهم والتعريف بجهودهم، وذلك لأسباب لا صلة لها بصدق الولاء والانتماء، بل هي مرتبطة بضعفهم المنهجي، وقلة إحاطتهم أو محدودية استيعابهم لأفكار ومناهج هؤلاء الأعلام في الدعوة والتغيير، وإصلاح شؤون الأمة في المجالات المختلفة.. ولا يخفى ما يمكن أن يترتب على ذلك من بلبلة للنفوس والعقول، أو انحراف فكري، قد تكون عواقبه وخيمة، وأضراره فادحة.

المشروع الفكري:

بعد أن عرض الدكتور عمارة لأهم المحطات في حياة الشيخ الغزالي مسلطا عليها الأضواء، لم يفته أن يحدد موقع هذا الطود الشامخ الذي يدرس بعض جوانب حياته وفكره، لذا فهو يقول في تواضع لا يظهر فيه نصيب من حظ النفس: "لقد تخرج الشيخ الغزالي - المولود سنة 1917م - من كلية أصول الدين جامعة الأزهر سنة 1941م.. فهو مني بمنزلة الأستاذ من التلميذ، فلقد دخلت الأزهر ملتحقا بمعهد دسوق سنة 1945م، و كان الشيخ الغزالي حينئذ شيخا وأستاذا وداعية وكاتبا في صحافة الإخوان المسلمين.. ومع ذلك فأنا لم أبدأ التعرف المنظم على فكر الشيخ الغزالي، والمتابعة المنهجية لمشروعه الفكري إلا منذ سنوات قريبة جدا.. أما عهدي بلاقائه، وتعريفي على مجلسه وحضوره فإنه لم يبلغ بعد ست سنوات..".

ولقد أدركت - وأنا الذي سبق ودرست الآثار الفكرية لأكثر من ثلاثين من أعلام الفكر الإسلامي، وكتبت عنهم الكتب والدراسات - أدركت أنني حيال الشيخ الغزالي، لست بإزاء مجرد داعية متميز، أو عالم من جيل الأساتذة العظام، أو مؤلف غزير الإنتاج، أو مفكر متعدد الاهتمامات، أو واحد من العاملين على تجديد فكر الإسلام لتتجدد به حياة المسلمين.. أدركت أنني بإزاء جميع ذلك، وأكثر منه وأهم.. فالرجل صاحب رسالة، جعل من حياته - ومن ثمراتها: فكره وقلمه - مشروعا فكريا متكاملا، هو عطاء مواهبه الفذة، الذي قدمه في ميدان تجديد الإسلام وإنهاض المسلمين".

إن المؤلف يسوق الأدلة المعضدة والداعمة لرأيه، في كون مؤلفات الشيخ الغزالي إنما تمثل نسقا واحدا متكاملا، أي "مشروعا فكريا" مميز القسّمات والملاح في إطار الفكر الإسلامي المعاصر.

ذلك أن هذه المؤلفات، تمكنت من التوغل الإيجابي في أعماق الذات الإسلامية، كما أنها أحسنت تصوير آلام وآمال هذه الذات في أبعادها الإنسانية والحضارية على صعيد الواقع وعلى صعيد آفاق المستقبل على حد سواء.

الموقع الفكري:

إن إقرار هذا الرأي - وإن كان يستند حقا إلى أدلة - ينبغي أن يبحث له عن جذوره التاريخية التي تمثل بالنسبة له الإطار المرجعي، ومن أجل ذلك فإن الدكتور عمارة يحاول - في هذا الفصل من كتابه - عن طريق تقصي تراث الفكر الإسلامي، أن يضع الشيخ الغزالي في موقعه الطبيعي - استنادا لمنطلقات فكره ومنهجه - ضمن مدرسة فكرية معينة من مدارس الفكر الإسلامي، والمدرسة الفكرية - في نظره - هي عنوان على إطار مرن، يضم العديد من العلماء والمفكرين والأعلام، الذين تجمعهم "أصول" يتفقون فيها ومنطلقات ينطلقون منها، وغايات يرومون تحقيقها، وذلك دون أن يكونوا "متماثلين" .. فهم "يتشابهون" في المناهج، غير أنهم "يتمايزون" في ترتيب أولويات القضايا والمهام، وفي درجات التركيز على بعض ميادين الإصلاح والدراسة، وكذلك في المزاج.. والأسلوب.. ومستوى الخطاب.. ونوع الجمهور.. إلخ.. والدكتور عمارة يرى بأن تحديد الموقع الفكري للشيخ الغزالي أمر ميسور، وسبب هذا اليسر هو الاستقراء الواعي لمضمون مشروعه الفكري من جهة، وممارساته الحياتية من جهة أخرى.. وكتاباته أقصر طريق لهذا التحديد، فهو قد عرض لمختلف المدارس الفكرية في حضارتنا الإسلامية، كمدرسة "الأثر" ومدرسة "الرأي" ومدرسة "الموازنة بين الأثر والرأي"، ومدرسة "النهضة" التي يمثلها محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحمد عبد الله دراز ومحمد أبو زهرة؛ ومدرسة "الاختيار الشخصي والتنسيق بين مختلف وجهات النظر" .. وهو بعد ذلك يصارح بأنه ينتمي إلى مدرسة الإمام "حسن البنا" وهذه المدرسة تُعتبر امتدادا

واعيا لمدرسة "محمد عبده" و"محمد رشيد رضا".. أي مدرسة الجامعة الإسلامية.. أو مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة لفكر الإسلام.

يقول الدكتور عمارة: "ونحن نقول إن شيخنا الغزالي هو واحد من علماء هذه المدرسة، وإن موقعه الفكري هو في الإطار الذي يجمع أعلام هذا التيار.. فالرجل يكاد أن يحتضن كل تراث الإسلام، وأن يستدعي من ثمرات إبداع المدارس الفكرية المختلفة كل اللبنة الصالحة للعتاء في مواجهة ما نواجه من تحديات.. فموقعه إذن في إطار مدرسة الإحياء والتجديد، وخاصة فصيلها الذي انتقل بإسلامية المعرفة والحياة من إطار "الصفوة" - كما كان الحال على عهد الشيخ محمد عبده - إلى إطار "الأمة وجماهيرها" - وهي المرحلة التي بدأت بالشيخ حسن البنا إمامه - رحمه الله - على أننا نلظم الشيخ الغزالي إذا لم ننبه على تميّزه في الفصيل الذي كان حسن البنا إمامه في مدرسة الجامعة الإسلامية.. فلقد كان متميزا منذ بدأ مشروعه الفكري سنة 1947م بكتابه الأول (الإسلام والأوضاع الاقتصادية).. ثم إن الرجل قد امتدت به التجربة، وامتد به الجهاد بعد استشهاد حسن البنا.. فواجه ما لم يواجه هذا الفصيل، في النصف الأول من هذا القرن [يقصد القرن العشرين المتصرّم].. ومن ثم فلقد أبدع الجديد الذي أضافه إلى رؤية هذا الفصيل".

والواقع أن المؤلف لا ينطلق هنا، في هذا الرأي / الرؤية، من فراغ، أو من مجرد الرغبة في الاسترسال في الكلام وإطلاقه على عواهنه، فإن نظرة واعية في مضامين كتب الشيخ الغزالي الأخيرة، أو الجديدة نسبيا، لا سيما كتاب "دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين" .. تثبت ذلك وتؤكد.

وعليه فإن الشيخ الغزالي ليس فقط رمزا من رموز التجديد والإحياء في الفكر الإسلامي المعاصر، وإنما هو أيضا إلى جانب ذلك، من القلائل، ممن آلوا على أنفسهم القيام بواجب تطوير موارث المدرسة التي ينتسبون إليها من الناحية الفكرية والاجتهادية، وهي ضميمة أخرى تضاف إلى رصيده لتؤكد جدارته بهذا الموقع وهذا التميز. وهذه حقيقة يؤكدتها النظر الموضوعي

المنهجي، بمنأى عن أي ميل للإطراء الذي قد يقع في شراكه بعض المعجبين، الواقعين تحت طائلة التأثير بوهج الأعلام من قادة الفكر ورموز العلم والتغيير.

المعارك الفكرية:

إن القارئ المتتبع لكتابات الشيخ الغزالي، يلحظ دون عسر كبير، أو مشقة، أنها كتابات يغلب عليها عنصر المحاورة، أو الدخول المباشر في مهاجمة الخصم، ولكن بالقدر الذي يعود بالنفع على الإسلام والدعوة، وهو في شتى المساجلات أو المعارك الفكرية يعترض أهم التحديات والمخاطر التي واجهت وتواجه طموح الأمة الإسلامية في النهوض والتقدم والانعتاق، ويروم إلى تحقيق حاجيات وتطلعات الفكر الإسلامي المعاصر إلى التجديد، كي يكون قادرا على الوفاء بمتطلبات هذا التقدم المنشود بالنسبة لجميع المسلمين سواء كأفراد أو مجتمعات أو أمة جامعة.

ويعترف المؤلف بأنه ليس بالإمكان - في هذا الكتاب الصغير - استقصاء كل المعارك الفكرية التي تجسدت في مشروع الشيخ الغزالي الفكري، فهذا الأمر كما يقول جدير بأن تفرد له رسالة دكتوراه وافية.

وعليه فإنه يقترح الحديث عن المجالين الآتين كأنموذجين لمعارك الشيخ الفكرية:

1. أولى المعارك الفكرية: ضد الظلم الاجتماعي:

يستغرب الكثير من المثقفين، خاصة العلمانيون ذوو المرجعية الفكرية التغريبية، أن تكون أولى معارك هذا الشيخ الأزهري، الذي لم يدرس الاقتصاد ولم يتفقه في النظريات الاقتصادية الغربية (1) أن يستفتح مسار حياته العلمية بمواجهة المظالم الاجتماعية والاستبداد المالي، فقد جاءت كتبه الأولى كلها في هذا الإطار، مثل كتاب (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) وكتاب (الإسلام والمناهج الاشتراكية) وكتاب (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) وكتاب (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) وكتاب (الإسلام والاستبداد السياسي).. وليس من شك - على رأي المؤلف - أن هذا الاستغراب أو التعجب من

قبل هؤلاء العلمانيين وبعض المثقفين (!) إنما يثير قضية "الجهل والتجاهل" العلماني لإسهام الإسلام والإسلاميين في ميدان الفكر الاجتماعي المعاصر.. فهل يعرف هؤلاء أن "حسن البناء" وحركته أول من طالب بتحديد ملكية الأراضي الزراعية، ونزع الأملاك عن الحد الأقصى من كبار الملاك، وتوزيعها - هي وأملاك الحكومة - على الفقراء والمساكين والمعدمين من الفلاحين؟.. ويرجع الدكتور عمارة بدء الشيخ الغزالي بهذه المعارك إلى خاصيتين رئيسيتين:

أ - فهو رغم روح الأديب في ثقافته وأسلوبه، وطبيعة الفنان في نظرته إلى الأشياء، قد امتلك الخبرة الذاتية العميقة بالأبعاد اللاإنسانية الرهيبة لمأساة الظلم الاجتماعي التي كانت تمسك بخناق الفلاح المصري - وفيه يتمثل جمهور الأمة - عندما نشأ في القرية المصرية "نكلا العنب" مركز إيتاي البارود، كابن فقير، لأسرة فقيرة تعيش في محيط الفقراء..

ب - امتلاكه الرؤية الإسلامية التي مثلت وتمثل عدل الله في ميزان القسطاس المستقيم الذي شرعه سبيلا للخلاص من الظلم، بكل ألوانه في أي زمان ومكان.. ولذلك رأينا هذا "الداعية" و"الأديب - الفنان" الذي يحترف "الوعظ" و"الإرشاد" في مساجد وزارة الأوقاف، يتوكل على الله، ويبدأ معاركه الفكرية بمنازلة الاستبداد المالي والظلم الاجتماعي.. أخطر أعداء الإنسان!

ويرى المؤلف بأن الشيخ الغزالي ممن يؤمنون إيمانا جازما بأن صلاح أمر الدين مؤسس على صلاح أمور الدنيا - وليس العكس - مستشهدا بقوله في كتاب (الإسلام والأوضاع الاقتصادية): "لقد رأيت بعد تجارب عدة، أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة، الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة!.. إنه من العسير جدا أن تملأ قلب إنسان بالهدى، إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى، إذا كان جسده عاريا!.. إنه يجب أن يؤمن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان، ثم ينتظر بعد ذلك أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان.. فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقا في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين، أو راغبين حقا في هداية الناس لرب العالمين.."

لذا فنحن لا نتعجب إذا رأينا الشيخ الغزالي يرفض الريف ويقول: "إن نظرتي واقعية اقتصادية للأشياء لا أثر فيها للخيال".. وذلك لأنه يحارب زيف الفكر الذي يتوهم أصحابه إمكانية إصلاح أحوال الناس بالمواعظ والأفكار دون تغيير الواقع المادي والاجتماعي، الذي يلعب دوره البارز في فتح العقول والقلوب كي تتقبل المواعظ والأفكار.. وهكذا فإن شعوب الشرق الإسلامي - برأي الشيخ الغزالي - تحتاج قبل أن تفهم الإسلام، وقبل أن يُنتظر منها إعزاز الإسلام، إلى جهود جبارة لرفع مستواها المادي والأدبي، أي إلى تصحيح إنسانيتها أولاً.. أما جهود المصلحين - قبل اتخاذ هذه الخطوة الضرورية - فهي أمواج من الماء تتدفق على صحراء الرمال.. فهيئات أن يكون لها ثمر.. ذلك أن للردائل والمعاصي التي يحاربها الدين أسباباً اقتصادية واجتماعية، لا بد من معالجتها أولاً إذا شئنا إقامة الدين الحق ومقاصد شريعته في هذه الحياة وفق بصيرة تفهم الإنسان فهما متكاملًا صحيحًا..

والشيخ الغزالي يدافع بحرارة عن إسلامية هذا المنهج في إصلاح أدواء الناس والمجتمع، نافياً الوهم الذي يحسب أصحابه أن إعطاء العنصر، أو العامل الاقتصادي والاجتماعي حقه في العملية الإصلاحية، إنما هو خصيصة من خصائص المنهج المادي الشيوعي/اليساري!! فالإسلام دين واقعي يوازن بين أشواق الروح ومقتضيات المادة والضرورة الإنسانية، فالفاقة أو الاضطراب الاقتصادي يكون في أحوال كثيرة جداً السبب الأوحد في نشوء الرذيلة وانتشارها؛ والحديث النبوي "إن المدين قد تلجئه قلةُ الوفاء إلى الكذب" يؤكد هذا الفهم ويدعمه، ويضع أيدينا على طرف الحقيقة، بعيداً عن أي غموض أو ريبة أو مغالطة في فهم السلوك الإنساني.

2. أحدث المعارك الفكرية: ضد النصوصية الحرفية:

ربما كانت آخر المساجلات العلمية، والمعارك الفكرية التي خاضها الشيخ الغزالي بقلمه وفكره، تلك الزوبعة التي أثارها كتابه الشهير "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"؛ وإنه لمن المؤسف حقاً، أن يعتقد بعض علمائنا ومتقفيها بأن هذا الكتاب إنما هو ضد السنة النبوية وضد المحدثين!! والحقيقة

أن الشيخ الغزالي داعية إلى حب السنة حبا واعيا على النحو الذي يجعلها - كما أراد الله - بيانا للقرآن الكريم ومنهجاً للوعي بالإسلام ومنهجه في إقامة الحياة الراشدة الطيبة؛ وهو في ذلك يروم تحقيق التكامل بين فقه الفقيه ورواية المحدث، بين الدراية والرواية، لتتغني من ساحتها الفكرية أسباب الشذوذ، التي جعلت البعض ينكر السنة جملة ويتنكر لها؛ وجعلت آخرين يمارسون تقديم روايات آحاد ومرويات معلولة على النص القرآني المحكم، الذي تعهد الله - عز وجل - بحفظه.

فهو إذن صاحب رؤية في الموضوع لها وزنها العلمي، وليس هذا بغريب - في الواقع - على الفكر الإسلامي، فقد عُرف هذا الفكر قديما في "مدرسة الرأي" التي نظر فقهاؤها إلى الظروف والملابسات التي أحاطت بـ "الأثر" - أي النص، والحديث منه بوجه خاص - ففسروا الحديث على ضوء هذه الملابسات، وفي إطار الآيات القرآنية المحكمة؛ وجعلوا الآية القرآنية المحكمة حاكمة على الحديث ومحددة لمعناه.

فكيف إذن وبأي حق يُساء الظن بهذا المنهج المعروف في تاريخنا العلمي؟!
ويُساء الظن أيضا بمن هو في تعامله الاجتهادي يعمل على ضوء هذا المنهج؟
حتى وإن كانت أعماله وحياته وجهاده العلمي لا تتناسب وهذا الظن لا في قليل ولا كثير!!

يقول الشيخ الغزالي: "تواجه السنة النبوية هجوما شديدا في هذه الأيام، وهو هجوم خال من العلم ومن الإنصاف. وقد تألفت بعض جماعات شاذة تدعي الاكتفاء بالقرآن وحده!! ولو تم لهذه الجماعات ما تريد لأضاعت القرآن والسنة جميعا.. فإن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله".

وعن الفريق الآخر يقول: "على أننا نعتب على جماعات كثيرة تتسبب للسنة، وتظهر التمسك بها، فإن مسلكتها قد يكون وراء انصراف بعض الناس عن السنن، وشكهم في جدواها.. ونأخذ على هذه الجماعات أمرين:

- أولهما أنها تُخلط الصحيح بالسقيم، ولا تدري بدقة ما يُقبل وما يُرد من المرويات.

- وثانيهما قصورهم الفقهي، فليست لهم قدم راسخة في فقه الكتاب الكريم! - مع أنه الأصل - وهل السنة إلا امتداد لسنا القرآن [أي نور وشعاع القرآن]، وتفسير لمعناه، وتحقيق لأهدافه ووصاياه؟.. كما أنهم يأخذون الأحاديث مقطوعة عن ملاسقاتها، ولا يضمنون إليها ما ورد في موضوعها من مرويات أخرى قد تؤيدها وقد تردّها.

والدكتور عمارة يرى - ويؤيد - بأن المنهج الذي ارتضاه الشيخ في دراسة السنة النبوية، وفي الاحتجاج بها.. هو منهج الجمع بين القرآن والسنة، ومحاكمة مرويات "البيان" إلى آيات "البلاغ".. والجمع - في عقل العالم ومنهجه - بين "الدراية" و"الرواية".. ذلك أن الاكتفاء بصحة السند - أي الرواية - قد جعلنا نقبل المرويات المكذوبة التي أسندها الوضعاء والكذبة إلى رواة ثقة وعدول؛ وها هو الإمام أحمد بن حنبل - إمام المحدثين - يقول عن الراوي "أبي فضالة فرج بن فضالة الشامي":

"لقد حدث عن يحيى بن سعيد مناكير، وحدث عن ثقة أحاديث مناكير".

انظر ابن حجر العسقلاني "تهذيب التهذيب" ج 8 ص 260 وما بعدها.. فالركون إلى "الرواية" دون "الدراية"، وعزل القرآن الكريم، وهو الأصل، عن السنة النبوية، التي هي بيانه المفسر؛ إنما يقود إلى كمّ من التناقضات والمفارقات، ويفضي إلى العديد من الثغرات التي يستند إليها أولئك الذين ابتدعوا وابتدعوا دعوى إنكار كل السنة، اكتفاء بالقرآن!!

وهكذا فإن معركة الشيخ الغزالي هي في حقيقتها، دفاع عن السنة النبوية المطهرة، في مواجهة طريفي الغلو فيها.. المنكرين لكل مروياتها بإطلاق.. والمتعصبين لكل مروياتها بإطلاق!!

ونحن نعجب من ذلك السيل المتدفق من الكتب والمقالات والخطب والندوات ونحوها، التي تصدت لرؤية الشيخ الغزالي التي ضمنها كتابه ذائع الصيت "السنة

النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث".. ومهما يكن من أمر فإن هذه المعركة ستظل معلماً آخر من معالم مشروع الشيخ الغزالي الفكري، الذي استهدف به إيقاظ الأمة، وتجديد فكرها، وإحياءها بالإسلام لتواجه التحديات، المفروضة عليها، ولتتخطى حواجز وعقبات التخلف والتراجع والإلحاق الحضاري.

وإن الحقيقة المجردة لتفرض علينا الإقرار بأن هذا الفكر هو الذي تحتاجه أمتنا اليوم لإعادة بناء حاضرها، وتأسيس وتأمين مستقبلها. أما الفكر الخامل، الذي تكتنفه الخرافة، ويسوده الغموض، فحريّ بنا جميعاً إطرأحه، لنحقق اعتناقتنا، ونضمن انطلاقنا، ونبصر آفاق مستقبلنا..

النقد الذاتي.. أو الرجل الأواب:

في هذا الفصل الأخير من الكتاب يتحدث الدكتور محمد عمارة عن خصلة أخرى بارزة يتحلى بها الشيخ الغزالي في أخلاقه ومعاملاته وواقعه، هذه الخصلة أو الصفة هي سرعة العودة إلى الحق إذا ما تبين، وممارسة نقد الذات كأسلوب مستمر في تربية الضمير؛ وهذه القيمة الخلقية والسلوكية الرفيعة - عند النظر - كانت علامة في وجود الكثير من الصفحات المشرقة المؤثرة في تاريخ أمتنا.

وعن هذه المسألة يقول المؤلف: "أما شيخنا محمد الغزالي.. فأنا أشهد أنه واحد من الأوابين في علماء العصر الذي نعيش فيه؛ إن الرجل لا يفتأ يردد - كلما جاء الحديث عن معاركه الفكرية - وبصدد نقده للذات: "إنني رجل في جدّة!.." وهي حالة من حالات جموح الانفعال يصعب التحكم فيها لدى كثير من الناس.. ولهذا السبب فهو يدعو الآخرين إلى تجاوز "الأسلوب" إلى لبّ "الموضوع".. ثم إن تاريخ الرجل - وهو مليء بالمعارك الفكرية - بل هو معركة فكرية متعددة الحلقات! حافل بمراجعتة لفكره، وتطويره لمواقفه، وضبطه لأحكامه، ومحاسبته لنفسه، وإعلانه - في شجاعة عظماء العلماء الأوبة إلى الحق والصواب، إذا تبين غير ذلك فيما خط قلمه أو نطق لسانه من آراء.. وتلك لعمرى! واحدة من خصائص الفكر الحي للأحياء من العلماء.. فالذين لا يراجعون أفكارهم إما أن يكونوا أمواتاً، أو هم كالأموات!.."

وفي هذا السياق يذكر المؤلف عدة أحداث وآراء ومواقف.. كلها تثبت صفة الأوبة إلى الحق في سلوك الشيخ الغزالي، ومراجعته لمواقفه ونقده لذاته كلما استدعت الموضوعية ذلك.

وهذا المسلك - لا شك - ثقیل على النفس، لذا فهو نادر في البشر، ولا يلتزم به في واقعه إلا الممتازون والعظماء من الناس. ومن الأمثلة التي يسوقها المؤلف في هذا المقام مراجعة الشيخ الغزالي لبعض مواقفه وآرائه؛ مثل رجوعه عن موقفه من الأستاذ الإمام حسن الهضيبي - رحمه الله، وكذا شعوره بالندم عن الرأي الذي قدمه إبان المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، المنعقد في مايو سنة 1976 م، حيث طالب فيه بلباس موحد للرجال وآخر للنساء حفاظا على السمات الإسلامي والشرقي لمجتمعاتنا، ومصدر الندم أن الموضوع الذي تحدث فيه لم يكن ملائما أو مناسبا لتجمع في مثل المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، حيث كان من الأنسب - كما يشير - أنه لو تحدث عن موضوع أخطر كالحريات مثلا، كما أن مصدر الندم أيضا أن حديثه ذاك - كما يقول في كتابه "معركة المصحف في العالم الإسلامي" - قد فتح الباب واسعا أمام الاتجاهات التغريبية للحديث في الصحافة بالظن في التشريع الإسلامي ووصفه بمختلف النعوت!

ويندرج في هذا المقام كذلك مراجعة الشيخ الغزالي لمجموعة من أفكاره وآرائه التي كان قد ضمّنها كتبه الأولى.. وقد جاء في الطبعة الجديدة لكتابه (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) قوله: "...وقد تبين لي - وأنا باحث أنشد الحق ولا أبتغي إلا وجه ربي - أن كثيرا من مواطني أقدامنا تحتاج إلى تبين.. وأن بعض الاجتهادات ربما تحتاج إلى تمحيص.. ففي كتابنا هذا - في طبعاته السابقة - كنا قد عرضنا لبعض القضايا.. وقد جدّ من الحقائق ما يدعونا إلى أن نعود إليها بشيء من التمحيص.. فقد كان هناك شطط في المصادر التي نقلت بعض الصور - التي اعتمدنا عليها.. وبالغت في تشويهها.. كانت الرؤية خاضعة لظروف وقتية، فلما تكشفت الحقائق لزم تغيير الآراء.."

ويرى المؤلف بأن الشيخ هنا - في هذا الموقف - يضرب نموذجاً آخر من نماذج الموضوعية في محاسبة النفس، ونقد الذات، ومراجعة الفكر، والعودة لما يراه حقاً.. وتلك شواهد صادقة على عظمة هذا الشيخ الأواب؟..

ويختتم المفكر الكبير الدكتور عمارة هذه السياقات المجسدة لخلق المحاسبة والأوبة ونقد الذات لدى الشيخ الغزالي، بقصة كان هو الشاهد فيها هذه المرة، وقد تركت في نفسه بالغ الأثر مما جعله يثبتها في هذا الكتاب للتاريخ والإنصاف، وللإقتداء بهذا السلوك الإسلامي البديع، ويبدأ في سرد هذه القصة قائلاً:

إنني أبادر فأسوق هذا الشاهد في هذا المقام، لا لأنني كنت طرفاً فيه، وإنما لأنني قد تعلمتُ منه ما لم أتعلم من كثير من الأعلام والشيوخ المعاصرين في هذا المجال، وأود أن أشرك معي في التعلم منه كثيرين، سواء منهم أولئك الأعلام الذين هم في مواقع القدوة والصدارة والقيادة أم الشباب، الذين هم في حاجة إلى نماذج تعيد إليهم الثقة في الرواد والقادة والأئمة من العلماء والأعلام.. لهذه الحكمة، ولهذا السبب، ولهذه الغاية، أسوق هذا الشاهد في ختام هذا الحديث عن صفة الأواب في هذا الشيخ الجليل..

في النصف الثاني من سنة 1983 م، كان الأستاذ عبد الرحمان الشرقاوي - رحمه الله - وهو كاتب يساري الفكر والتوجه - ينشر في صحيفة "الأهرام" سلسلة من المقالات أطلق عليها اسم: "الصور الأدبية" وهي فصول عن الإمام علي بن أبي طالب، وقد اختار لها عنواناً فرعياً هو: (علي: إمام المتقين).. وأخذت آراؤه وتقويماته لأحداث التاريخ الإسلامي وصراعاته، في حقبة صدر الإسلام، تثير الجدل في عدد من الصحف والمجلات، ما بين ناقد، ومحبذ، ومعترض، ومهاجم.. إلخ..

وكان الشيخ الغزالي، وقتئذ يعيش في "قطر" أستاذاً في جامعته.. فأدلى بدلوه في هذه المعركة، من موقع الناقد للمنهج اليساري في تفسير التاريخ الإسلامي.. وفي محاضرة عامة، حول هذه القضية، ألقاها في قطر، وجه هجومه الغاضب إلى الذين يسمون أنفسهم بـ "تيار اليسار الإسلامي".. وكانت مفاجأة لي

الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري.. والمعارك الفكرية

عندما قرأت في صحيفة "الأهرام" الفقرة التي نقلها الشرقاوي عن محاضرة الشيخ، والتي جمع فيها أسماء كتاب اليسار الإسلامي، الذين صبّ عليهم هجومه الغاضب.. كانت مفاجأة لي أن وجدتُ اسمي ضمن هذه الأسماء!؟...

لقد فوجئت، لأن هذه ليست حقيقة موقفني الفكري.. وفوجئت لغيبة هذه الحقيقة عن الشيخ الغزالي - الذي اعتقدتُ - رغم أننا لم نكن قد التقينا بعدُ لقاءً مباشراً - أنه لا بد وأن يكون ملماً ولو بطرف قليل مما قدمته للمكتبة الإسلامية من فكر لا يباعد فقط بيني وبين دعاة "اليسار الإسلامي" وإنما هو ينقض ويهدم - من الأساس - مصداقية ومشروعية وجود مثل هذا التيار في واقعنا الفكري والثقافي....

لقد فوجئت.. لكنني لم أغضب.. فضلاً عن أنني طويتُ الأمر مع طيبي لصحيفة الأهرام!..

ثم حدث أن سألني صديق - أستاذ في جامعة قطر - عن مشاعري حيال هجوم الشيخ الذي تناولني فيمن تناول!؟..

فأجبته - صادقاً - بأنني على يقين من أن الشيخ الغزالي قد تناولني وهو غاضب، لكنني على ذات الدرجة من اليقين بأن غضبته إنما كانت لله ولدينه، وانتصاراً للحق الذي يبتغيه.. ولذلك فإن حبي للشيخ، واعتزالي بفكره وجهاده، لم ولن يؤثر بوضعه لي - إبان غضبته المشروعة هذه - في الموقع الذي لا أحب ولا أرضى!.. ثم حدث أن بلغ رأيي هذا إلى شاب مثقف - كان يتولى إدارة الشؤون الثقافية بجامعة قطر - ليست بيني وبينه معرفة مباشرة - لكنه كان يقرأ لي - مع إعجاب وتقدير - وفي ذات الوقت كان من مريدي الشيخ الغزالي ومحبيه.. فعزّ عليه وجود هذا الخلاف المعلن بين الشيخ الغزالي وبينني، مع يقينه - وهو الذي يتابع فكرنا معا - بأنه خلاف لا مبرر لوجوده أصلاً.. فتطوَّع وذهب إلى الشيخ الغزالي، وعرض عليه أن يقرأ عدداً من مقالات قصيرة، كنتُ أنشرها أسبوعياً في مجلة (الشراع) - البيروتية - في زاوية أطلقت عليها عنوان "التراث والمستقبل".

حدث كل هذا المسعى الطيب دون أن أدري عنه شيئاً! وما هي إلا أيام حتى تسلمتُ خطاباً أثار مظهره الانتباه.. فعلى المظروف عبارة "المرسل: محمد الغزالي - كلية الشريعة - جامعة قطر". ولم أكن من قبل قد التقيتُ بشيخنا الجليل.. ولا تبادلنا المراسلات.. وأقرب العهد به هو خبر ذلك الهجوم الذي أشرتُ إليه! فلما فتحتُ المظروف، وقرأتُ خطاب الشيخ الغزالي.. كانت المفاجأة التي هزت كياني من الأعماق.. لقد وجدتهني أمام وثيقة لا يكتبها إلا واحد من عظماء الرجال.. فهذا الشيخ الجليل، الذي يقع مني موقع الأستاذ من التلميذ.. يجلس في موقعه هذا ليراجع نفسه، ويحاسبها، ولينتقد ذاته، وليعلن لي عن تصحيحه لموقفه مني، لا في إطار هذه الرسالة فقط، وإنما علنا وعلى رؤوس الأشهاد!! حقا إنه رجل أواب.. وإذا كانت رسالته هذه قد هزت كياني من الأعماق.. فبادرتُ أكتب إليه قائلاً: إن أمة فيها أمثالك لا بد منتصرة بإذن الله.. لذلك فإنني بإزاء الذي تعلمته من رسالة هذا الشيخ الأواب، أجدني مطالباً - أمام ضميري - بأن أيسر مصدره ليتعلم منه الآخرون، وليقوم شاهداً حياً على صدق الذي أقوله عن هذا الجانب من جوانب خلق هذا الشيخ الجليل.. لقد كتب في رسالته تلك يقول: بسم الله الرحمن الرحيم.. أخي الأستاذ الدكتور محمد عمارة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - وبعد - فإن القليل الذي قرأته لك أخيراً ردني إلى الصواب في أمرك، وجعلني أندم على تعجلي في عدك من كتاب "اليسار الإسلامي".. لقد كنتُ في ضيق شديد للخرج الذي وقع فيه الفكر الإسلامي عندنا هنا.. في الخليج الذي يمرح فيه الغزو الثقافي في غير خجل ولا قلق.. وتناولتُ ناساً قرأت لهم ما لا يسر، ولكني ما كنتُ قرأت لك، وإنما حدثني البعض أنك تصف الشريعة الإسلامية بأنها من وضع الفقهاء، وتبنى النظرة المادية إلى الفلسفة الإسلامية.. ما كان يليق بي أن أعتمد السماع في تقدير الرجال، ومن ثم كنتُ - بعد وصفي لك باليسار الإسلامي - قلقاً في عدالة الحكم الذي صدر مني بالنسبة لكم خاصة.. والآن، وبعد قراءات قليلة لأثارك الأدبية أيها الأخ العزيز رجعتُ إلى من حدثوني وقلت لهم: إن الطبيعة العقلية للدكتور محمد عمارة تتسم بعمق النظرة، وسعة العلم، والتجرد للحق.. وإذا مضى في هذا الطريق فأحسبه سيكون نموذجاً للأستاذ العقاد، وعبقرياته

الإسلامية.. معذرة عما قلته، وعند أول فرصة لكتابة عامة سأنشر رأيي، فهذا حقك الذي يفرضه علي ديني. والسلام عليكم ورحمة الله. الدوحة في 25 جمادى الآخرة سنة 1404 هجري/ أخوك: محمد الغزالي.

وقفة أخيرة:

لقد كانت هذه الرسالة طافحة بنبل المشاعر الإنسانية، وعمق التجرد للحق، والتسامي على نقائص النفس، ولزوم المراجعة ونقد الذات.. إلى درجة أنها هزت - بصدقها ونبل مراميها - أعماق ووجدان المفكر الدكتور محمد عمارة وملكت عليه شغاف قلبه، فكتب عنها يقول: "تلك هي الرسالة - الوثيقة" .. التي احتفظتُ بها ست سنوات، رافضا إلحاح كثير من الأصدقاء عليَّ كي أنشرها..

فلما شاء الله وشرعتُ أكتب هذه الدراسة عن هذا الشيخ الجليل.. وعن لي أن أتناول هذا الجانب من جوانب شخصيته وخلقه.. محاسبة النفس.. ومراجعة الفكر.. ونقد الذات.. أثرت أن أشرك غيري في أن يتعلم منه.. وأحببت أن أقيم شاهدا آخر - قد لا يعلمه الناس - على تحلي هذا العالم.. المجدد.. المجاهد.. بخلق المسلم الأبواب.."

وبعد.. فهذا نموذج من كتابة الكبار عن بعضهم، نقدمه لقرائنا وباحثينا الأفاضل.. ونحن على يقين من أن هذا المسلك لو كُتب له الاندياح والذيع المطلوب، فإنه سيحول دون انتشار المرويات المكذوبة، والدعايات المغرضة عن أعلام نهضتنا، وهو الأمر الذي يعني كذلك بالتبعية واللزوم، الحفاظ على منابع ثقافتنا وصونها عن كل ما بإمكانه تعكيرها والإساءة إليها، سواء بالدرس في أحشائها ما لا ينفع، أو بتزييفها وتمييع وجهتها، كي لا تؤدي دورها في ترشيد الأجيال وربطها بهويّتها، وتاريخها، ولا شك أنه إذا حدث انفصام بين الأجيال الناشئة، وبين المرجعية الثقافية للأمة، كان ذلك بمثابة الطريق الممهدة لموت الأمة وإهالة التراب على ذكراها.

إن الدكتور محمد عمارة في هذا الكتاب، بل في هذا العمل الفذ، واللفتة الفنية البديعة، والأفق الفكري المستدير، إنما ينهج نهجا، نحن فعلا في ميسر الحاجة إليه، وتأصيله، وجعله تقليدا محترما في سلوكنا الثقافي وفي واقعنا الفكري.

فماذا لو يحرص عظماء وأعلام أمتنا على مسلك الكتابة عن بعضهم في كل عصر.. أفلا يكون ذلك طريقا ومنهجاً لتوثيق الكثير من الحقائق؟

أم أن المعاصرة ستظل على الدوام - كما قيل - حجاباً، يجعلنا لا نرى الحقيقة كما ينبغي أن نراها، فيفوتنا الكثير من الخير الذي عليه الكثير من علمائنا وأعلامنا وقادتنا.. لا شيء إلا لأن عصراً واحداً قد جمعنا في بوتقة العيش معهم أو في مرحلة وجودهم؟

إن مثقفي الحضارة الغربية إذا رأوا من عظمائهم وقادتهم خيراً أذاعوه، وإذا رأوا شراً كتموه، وقد كتب هؤلاء المثقفون كتباً كثيرة، تنوّه بأمجاد نابليون وتتواصى بالغضب عن غدره وخسسته ونقائصه. ومنذ عدة عقود مات بابا روما، عقب مرض ألمّ به، فألف طبيبه الخاص كتاباً ذكر فيه أسراراً تسيء إليه، فصور الكتاب وتمّ فصل الطبيب من وظيفته، أما عندنا نحن، فالصورة معكوسة.. وهذه دعوة صريحة لمراجعة الموقف تجاه علمائنا وعظمائنا وقادتنا، وضرورة جعلهم في الموقع الصحيح، كي تنتفع الأمة بعلمهم وتجاربهم وخبراتهم.. والله وليّ التوفيق والسداد.